قانصوه الغورى

سلطان مصر الشهيد

الأستاذ محمود رزق سليم

الفصل الرابع

أقوال وأحاديث

بعد تولية السلطان الغورى ببضع سنوات ، جلس الشيخ « ولى الدين القوصى » الفقيه ، فى إحدى مسائيات شهر رمضان تجاه مسجد الغورى ، الذى أنشأه حديثا فى حى الشرابشيين ، فى حانوت صديق له يمتهن حرفة الحياكة ، ويتعاطى صناعة الأدب ... ويدعى « علم الدين الخياط »

خرج « علم الدين » من غمار عاميته بعض الخروج ، وأصبح ربع مثقف . ولقد كان رجلا سمح الوجه ، رطب الحديث ، حسن اللقاء ، يحب الأدباء والفقهاء . وقد تلقف من مجالستهم ، ومن أفواههم ، خليطا من النكات البارعة ، والمحاضرات اللطيفة ، والقولات النافعة . ودس نفسه فى مجالاتهم ، وعاونه عمله على أن يكون له من بينهم عدة من الأصدقاء

أقبل الناس على « علم الدين » وكثرت زبائنه ، فاتسع حانوته وازدان وتجمل . واستطاع أن يحتجز ركنا من أركان هذا الحانوت ، ليكون مكانا مطمئنا ، وملتقى هادئا ، يتداعى إليه أصدقاؤه

وكان أجمل ما يكون اللقاء بينهم فى تلك الليالى الرمضانية الجميلة التى يحلو فيها السهر والسمر والحديث

ولقد أعد « علم الدين » بهذا الركن عدة من مصاطب واطئة كساها بالحصير الملون . وربما تجد ببعض جوانبها وسائد وحشيات تلطف الجلسة وتهون أمرها وتسهل إطالتها ، بل وربما تغرى بها وتدعو الأصدقاء إليها

وانتشر فى نواحى الحانوت ، القناديل الزيتية النظيفة الوضيئة فأضفت عليه ثوبا جذابا من النور

وكان « ولى الدين » الفقيه ، ممن يفد إلى « علم الدين » ويتردد عليه من آن لآن ، ويجالسه فى حانوته ويقيم معه فى ركنه المعد لضيفانه ، زمنا ليس بالقليل . بل ربما كان « ولى الدين » من خاصة خلصانه الذين أدمنوا القبوع فى ركن حانوته الوثير

وفى الليلة المذكورة وفدا إليه ، وفاء لموعد اتفقا عليه ، ليجتمع إلى سمرهما طائفة من الأصدقاء ، يطالع بعضهم بعضا بالجديد من أخباره ، واللذيذ الممتع من قصصه ، والخفى من مدخرات علمه

وكان علم الدين ، وولى الدين ، ومن يجلس إليهما ، قد اعتادوا أن يتناولوا فى مجالسهم أخلاطا من مسائل شتى قد لا تجمعها جامعة ، إلا مناسبات استطرادية تافهة ، وهى ما بين روايات أدبية ، وطرف فكاهية ، وأحاديث سياسية ، ونقدات اجتماعية ، ومساءلات فقهية ، وعظات تاريخية ، ونحو ذلك

وقد يحمى بينهم وطيس الجدل والنقاش . وقد يسفل بهم الحديث وخفته ولجاجه ، إلى مجانة ممجوجة ، ودعابة مكشوفة ، وقد يرتفع بهم الحديث ، فيسمون إلى أعلى المقامات ... فينتقدون النقد المر اللاذع حقا كان أم باطلا . صوابا كان أم خطأ ... حتى إذا ما انفض سامرهم ، وانقضى مجلسهم ، انفض كل شئ من حديثهم فيه ، وانقضى . ولم يبق فى ذهنهم ولا لسانهم من أثره شئ ، وإن علقت أشياء منه بنفوسهم ولونت عواطفهم

غير أن خطر هذا الحديث — إن كان ثمة خطر — لا يتعدى دائرة هذا الحانوت ... وما كان لخاطره أن يتعداها ... لأن هؤلاء المتحدثين أشياء مثقفين ، ثم ليس لهم صلة وثيقة بالعامة تجمعهم معها على رأى ، وليسوا بواجدين من يصيخ لهم إذا أهابوا ، أو يجيب إذا دعوا . ثم إن العامة غافلة لاهية ، وحولها هذا الخناق الحديدى المضروب من السلطان وأمرائه ورجال دولته

ثم ما لهؤلاء والجهاد والكفاح وهم لم يجتمعوا قط إلا للتسلية وقطع وقت فراغ ؟

* * *

هبت أنسام الليل وانية لطيفة ، فأيقظت من الأذهان راقدها ، وأنعشت من النفوس كاسدها ، وكان الجمع قد التأم شمله : وانتظم عقده ، ومن بينه أديب يتعاطى الشعر يدعى « شهاب الدين » ومتعمم من مستوفى الدولة يسمى « ركن الدين » ، وتاجر من جيران علم الدين ، ولقبه « غرس الدين » ، وآخرون على غرارهم .

قال الشيخ ولى الدين : ما أجمل هذه الأنسام ، وما ألطفها ، وما أرق فؤادها ، وما آمن بدها ، إنها لتسرى إلى النفس فتبعث فيها نشوة غريبة ، وتهزها هزة الفرح والسرور والابتهاج ، كأنما تعطف بها على أهل الأرض سكان الجنة .

أما الأمس فقد شقت الهاجرة علينا عصا الطاعة — على غير عادتها فى مثل هذا الوقت — وافجعتنا بصفعات حامية من يديها مقوالية . وقد عاونتها علينا تلك الرمال السافية اليقظى التى كانت ناعسة الجفون فى حضن الجبل ، فحركتها الرياح من سباتها ، وأقلقتها من مضجعها ، وشهرتها سلاحا تؤذى به من يعترض سبيلها . . .

فقال التاجر غرس الدين : وأين كنت يا مولانا الشيخ فى ذلك الوقت القائظ ؟ إن الرءوس حين ذلك لتجتمع عليه عدة عوامل تدفعه دفعا إلى منزله ، لينال قسطا من النوم أو الراحة . فالحر الشديد ، والرياح الشاردة ، والرمال الهابية ، وانفضاض السوق من التجار والمارة ، وآلام الصوم ، وما تعانيه البطون من الطوى ، كل أولئك يغرى المرء بالتماس الدعة والجنوح إلى السكون فى عقر داره . .

فقال الشيخ ولى الدين : حقا أن كل ذلك يغرى بطلب الراحة والاستجمام . ولكن لى صديقا مريضا ، احتجب عن عينى منذ أمد ، فوددت أن أزوره وفاء للصداقة وطلبا للأجر . . ! وكنت أخشى أن يضيق وقت الليل عن زيارته . ولقد اضطررت مرارا أن أسير غامض العينين فى الطريق حتى لا يؤذينى الغبار . ولا أكاد أفتحهما حتى تقتحمهما ذراته ، فتقطر عبراتهما . .

ثم أتدرى ماذا أصابنى ؟ صادفت حفرة لم أحتط لها ، فتردیت فيها عاثرا فى فضل ردائى ، وأصبحت بذلك عبرة للعابرة من الصبية وأشباه الصبية . ألا لعن الله الحرم وضعفه .

فقال التاجر غرس الدين : هنيئا لك مريئا يا مولانا . . . ! « ضحك »

رد الشيخ ولى الدين قائلا : هناك الله يابنى ، وأحسن إليك بأمثالها . .

فقال الشاعر شهاب الدين : جاء فى الحديث الشريف ما معناه : « إنما الأعمال بالنيات » . وقال بعض الشارحين إن هناك مضافا محذوفا ، تقديره « جزاء الأعمال » . . « ضحك »

فقال الشيخ ولى الدين : صه ! متى عرفت الفقه والحديث أيها الشعرور . . ؟ لا تلغ فيما لا تعرف . . ولا تهرف وكف . . حسبك أبيات هزيلة تقيم أودها ، وقوافى نحيلة ترمم جسدها . . ثم تدفع بها بين أسماعنا المصطكة ، وتطن بها كابطن الذباب . . ألا قاتل الله حمق زماننا من أمثالك الذين يحسبون أنفسهم فى الشعراء ، وهم لا يحسنون قراءة الشعر وتقويم بيت من أبياته . . ألم تسمع ما قاله من قبلنا مجد الدين الخياط . . لقد قال :

وفى متشاعرى عصرى أناس ... أقل صفات شعرهم الجنون
يظنون القريض قيام وزن ... وقافية وما شاءت تكون ...

فقال شهاب الدين : هكذا أنتم يامعشر الفقهاء ، تتأولون . . ! تدعون الفقه لتحرفوا به الكلام عن مواضعه . . ومن أدراك أيها الشيخ أنى قصدت أن الله عجل لك الجزاء فى الدنيا . . . لعله يدخره لك فى الآخرة !

أما نحن فإننا نعرف أن بعضا من أمثالك الشيوخ يزلقون عن عمد فى الطريق تمهيداً لغاية ، وسبيلا إلى مأرب . . . وقد قال أحد الشعراء :

إذا ما الشيخ ردى فى طريق ... وقاه الناس من جزع إليه
فذاك لكى يرى غرا صباحا ... نحن لفرط نجدتها عليه . .

أما فقهك وحديثك فكما قال كمال الدين الإدفوى :

إن الدروس بعصرنا فى عصرنا ... طبعت على لغط وفرط عياط
ومباحث لا تنتهى لنهاية ... جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها ... نشأت من التخليط والإخلاط
ومحدث قد كان غاية علمه ... أجزاء يرويها عن القمياطى
وفلانة تروى حديثا عاليا ... وفلان يروى ذاك عن أسباط

والفرق بين عزهم وعزرهم وانصح عن الخياط والخياط
والفاضل النحرير فيهم دأبه أقوال رسطاليس أو بقراط
وعلوم دين الله نادت جهرة هذا زمان فيه طي بساطي

فقال الشيخ ولي الدين : اتق الله أيها الشويعر ، ولا تظن بالناس الظنون ، ونحن في رمضان ...

فقال شهاب الدين : إذا لننتظر حتى يودع رمضان . وبعد ذلك تسن لنا الظنون ... ؟ « ضحك »

فقال الشيخ ولي الدين : لا ! أعني أن رمضان فترة زمنية طاهرة مباركة ، يتجمل المرء فيها بالسلم من الأخلاق والكامل من الأحاديث ، ليكون صيامه خاليا من كل شائبة . ولعل النفس تصفو خلاله ، فيستمر لها من بعده صفاؤها ..

فقال التاجر غرس الدين : لقد صمت يامولانا أكثر من أربعين عاما ، وصمت أنا أكثر من ثلاثين . فهل صنت نفسك؟ أو لاتزال في حاجة إلى تجارب أخرى جديدة ...

فقال الشيخ : قال الله تعالى « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . والصوم عبادة مشروعة وتهذيب للنفوس

فقال المستوفي زكي الدين : يبدو أن مولانا قد أثرت فيه أنسام هذه الليلة ، فانسجم في حديثه .. أفلا تخبرني أين تصلي الفجر القادم ؟ ليكون لي حظ الجماعة من خلفك ... ؟ « ضحك »

فقال الشيخ : حتى أنت تورى يازكي الدين ... ؟

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

يامعشر القاهريين ! أنتم لا تفوتكم النكتة ، ولا تفلتكم التورية، ولو كانت على أنفسكم، حتى أصبحتم فيها مضرب الأمثال

وما دمت يازكي الدين تريد المزاح ، فإن لك متسعا في مسجد الشرابشيين ... « ضحك »

فقال علم الدين : ألا قل لنا يامولانا الشيخ ! ما حكم الشرع في الصلاة في هذا المسجد ؟

فقال الشيخ : حكم الصلاة ؟ الصلاة مباحة في كافة المساجد ، وفي الأماكن الطاهرة ، لاحرمة فيها على المصلي أما الجمعة وخطبتها ، فقد أجاز الحنفية تعددها في المدينة الواحدة . وقد أفتى قاضي الحنفية الشيخ عبد البر بن الشحنة ، لمولانا السلطان الغوري بجوازها في مسجده هذا ، وأذن السلطان بها

فقال علم الدين : أنا لا أسأل عن حكم الصلاة من هذه الناحية . وإنما قيل إن السلطان بناه بأموال جمعها ظلما وجورا وعدوانا . فهل تصح صلاة في مسجد لم يؤسس على التقوى ؟

الشيخ : أما الجور فوزره على من يجور . وأما الصلاة فليس هناك ما يبطلها في مثل هذا المسجد . فالصلاة صحيحة ، وإن لزم المصلي حرمة ..

ثم إن الله تعالى عليم بذات الصدور ، وهو يزن الأعمال صالحها وطالحها ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها

علم الدين : أعلمت يا مولانا الشيخ كيف بنى السلطان مسجده هذا ؟

الشيخ : لقد تهاوى إلى سمعي منذ أمد ما اجترحه السلطان حين تصدى لبناء هذا المسجد وتشييده وتجميله . ولكني دائما لا أسرع إلى الظن بالناس ، فإن بعض الظن إثم .. ثم إني أكره الغيبة والنميمة ، وأعرف أن أهل مصر لا تطاق ألسنتهم . . ويل لامرئ تقع عيونهم منه على مذمة ، أو تسمع آذانهم عنه منقصة ، فإنهم لا يغفرون له ذنبا ، ولا يسترون له عيبا . وقد يبالغون في لومه والحملة عليه بما لا يستحقه ..

ثم إن هذا المسجد قد افتتحه السلطان وممه قضاة القضاة . فحضورهم ممه في افتتاحه والصلاة فيه فتوى ضمنية للعامة بجواز إقامتها فيه . فإن يكن هناك إثم أو حرمة ، فهي لأصقة بهم ..

ولكن كيف جمع السلطان هذه الأموال ظلما وجورا ؟

فقال المستوفي زكي الدين : الحق أن السلطان قد اشتط في فرض الغرامات على المتهمين ، وجاوز في ذلك حد العدالة . وأصبحت أقرب عقوبة يؤدبهم بها ، الغرم المالي . فامتلأت بذلك الخزائن الشريفة ..

وربما كان له عذر عند أول عهده بالسلطنة ، لأنه وجد خزائنها

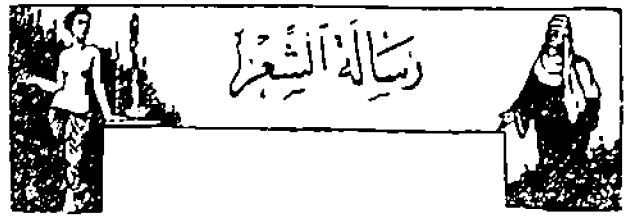

أول موعد ...

طال انتظاري يا حبيبة مهجتي ... منذ الغروب
والليل قد بسط الجناح على المعالم والدروب
ما جئت أنت ، ولا بدا للعين موكبك الرغيب
أما أنا . . فأنا هنا . . من قبل موعدنا الحبيب

* * *

قد حان وقت لقائنـــا ، ومضى ، ولما تقبلي
أنت التي بضياء عينيـــك الشهي حلفت لي
ماذا ترى ألهاك عن عدة اللقـــاء الأول ؟
ما تفعلين إذن بحبي في الزمان المقبـل ؟ !

* * *

واعدتني اللقيا ، فكدت أطير من فرحي بها
وطفقت أنتهب المدى - شغفا - إلى محرابها
أستلهم الأنسام عطرك حالقا بثيابهـا
وصبابتي في أوجها ، في عنفوان شبابها

* * *

ما زف حولي في شعاب الليل طيف أو هفا
إلا أطرت وراءه بصرا وسمعـــا مرهفا
حتى مضى الزمن المجول ، كنشوتي متلهفا ؛
يستطلع الفجر الوليد ... ولم أزل مستشرفا

* * *

ويفيض بي يأسي الممض فأنثني بمـدامعي
صفر اليدين من اللقاء . . سوى لقاء مواجعي

خاوية على عروشها ، بعد أن عانت ما عانت إبان عهد الملك العادل وفتنته . . أما الآن وقد امتلأت بالدنانير ، وغصت بالأموال ، فلا معنى لكل هذه الغرامات والمصادرات

إن مدرسته المنشأة في هذا الحي ، قد أنفق على بنائها من أموال المصادرات ووجوه الظلم . وبمثر على تزيينها ما فرضه من الغرامات على الممتلكات وأراضي الأوقاف ، حتى أوقاف البيمارستان المنصوري قد فرض عليها مالا

ولم يقف عند هذا الحد ، بل غلا في البناء ، وبالغ في الزخرف ، وجلب إلى المدرسة الرخام النفيس النادر وقد ابتاعه من مالكيه بأبخس الأثمان . وخرب قاعة شوال اليهودي الصيرفي ، ونقل منها رخامها وأبوابها قسرا ، وهكذا . . . حتى سماها بعض الظرفاء : « المسجد الحرام » . ! « نحك »

فقال الشاعر : وقال فيها أيضا بعض الشعراء :

بنى الأشرف الغوري للناس جامعا ... فضاع ثواب الله فيه لطالبه
كمثل حمام جمعت في شباكها ... متى تلق عنها طار كل لصاحبه

فقال المستوفي : أجل ! ثم إنه احتفل بافتتاحها ، وأقام الولائم الحافلة للأمراء والقضاة وأعيان الدولة ، فأمر الناس فأقاموا على دورهم وحوانيتهم معالم الزينة ، وعلقوا القناديل الموقودة

وقد عقد بهذه المدرسة تلك القبة العظيمة التي غلفها بالقاشاني الأزرق ، وخلع على عدد كبير ممن اشترك في بنائها من المهندسين والبنائين والنجارين والرخمين وغيرهم من الصناع خلعا ثمينة ، وأنعم عليهم بالإنعامات النفيسة ، وأعطى كل « فاعل » ألف درهم

« الكلام بقية »

محمود رزق سليم